نور وهّاج

قصة سمعتها فى صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إلياك فى بساطتها كما وعيتها منذ سنين .

صاحبها الأوحد ، غطريف من غطاريف الريف الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ، فما فتئ بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه فى كل يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلّ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لايصرف عنه أحداً منهم إلاعامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .

لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ، تتداول الألسن اسمه فى أحاديثها ، حتى عرفته القرى النائية ، فى أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدى إليها فى خضم الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى فى ردائه طيف المنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة الأداء ، فيشهدك كل يوم جدثاً رطباً جديداً ، تنضم جنباته على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً فى مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجه شاحب مصفر ، وصدر يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء لصدره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحان أجله ، حتى صحا صحوة الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم متثلم الصوت :

اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقرائى المحاويج ؟ !

ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطريفنا الراحل : خدين لازمه منذ الطفولة الباكرة ، إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .

لم يكن بينهما سر مطوىّ ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض جعبته لصاحبه فى مصارحة وصدق .

وجلس الخدين فى مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيه التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة اللاهية :

واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ، وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب والمرح ، وفى يد كل منهما قطعة من الحلوى يحشو بها فمه ، والأخدان من حولهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .

وما يعتم الناقوس أن يدق دقات معلومات ، هى إشارة منه إلى بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث التلاميذ أن ينتظموا فى سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .

وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك فى إثرها ذلك الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، فى نظام وخشوع .

ويمتاز يوم الاثنين فى هذه المدرسة على غيره من أيام الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذى تجمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ، تبذل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تثريب ، وليس على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، فى يده سفط مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتجود .

وكانت التبرعات تجمع عادة ، فى درس الدين ، فما إن تسفر عمامة الشيخ « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر أوامره بجباية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ، بالسفط يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ، يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة مليمات ، هى فريضته التى آلى على نفسه أن يؤديها فى الأسبوع بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلا يحتذى . وسرعان ما يصير النقود فى منديل مخطط عريض يحكم عقدته ، ويستوعيه صدر قبائه فى عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة فى نشطة ، وامسطرة «سيدنا الشيخ» على أيدى المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، واوع بالخير ، مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، قصارى همه حض الناس على تقى وصلاح .

منطقه في ذلك هو منطق الدين الحنيف ، إذ لا سعادة في مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا في نفقات لهوهم ، ليقدموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كي يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقمت السيارة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً في عظاته حتى يختتمها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنة بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبي يخلو بالشيخ « خير الله » ، في غير أوقات الدرس ، يسائله في أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما بخل عليه الشيخ بشرح ولا ضن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبي منزلة الفهم والاقتناع .

على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبي في وقفة مع الشيخ :

بني الإسلام على خمس ، فأيها أفضل عند الله وأمثل ؟

فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

ـ أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

ـ الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن لا تنس الزكاة ، فهى للفرد تطهير وللجموع مؤنة ومعونة وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبى قائلا فى تشوق وحماس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

ـ أقصر كبير هى ؟

ـ بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من ألوان النعيم ، وأسباب المتاع ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ـ ولمن هى ؟

ـ لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبى من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ، مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطايب النعم ،

وكأنها من خياله الساذج : مدينة متراحبة الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافيها الشجر محملة بيانع الثمر ، وعلى صفحة مائها المواج تتهادى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللآلئ ، وينبعث منها شدو راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها رنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة الجنة إلا أن يعجل إلى خدينه يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :

ما أجمل الجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . فى مكنتك أن تنالها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لقى خدينه يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خيرالله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السفط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشيبة السبك ، رفيعة القدر .

وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ، تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهو بنفسه ، ويتطاول بلألائه على كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب وفخار ، فما أسرع أن أزاغ الصبي بصره ، يتشاغل عنه ، وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المنديل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى انثنى الرائد على أذن «الشيخ» يهمس إليه ، وهو يومئ طوراً إلى قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذى ما زال منكبًّا على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هى إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبى النداء ، ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على محياه علائم استحياء .

وصدع الشيخ « خير الله » يقول :

ارفع رأسك يا بنى ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . . من كانت أريحيته هذه ، استحق موفور الثناء .

وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة : يطرى فيها صنيع ذلك الأريحى المفضال ، حاثًّا أقرانه أن يحذوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصة ، وتفرق التلاميذ فى فناء المدرسة يلعبون ، وانبعث الخدين يتفقد صديقه ، فظفر به فى ركن قصى ، ولم يكن مرحاً كعادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه فى جيب سرواله ، مطأطئ الرأس ، يركل الحصيات فى حدة ، وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الخدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى ، مبتهج الأسارير .

فغمغم الصبى يقول وهو على حاله :

اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .

— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبى هنيهة ثم انبعث فجأة يقول :

أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها الولد من مال أبيه ؟

فعجب الخدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيئاً ، فجمجم يقول :

لا تكتم عنى ما فى نفسك.. وأنا أستفتى لك شيخنا كما تريد .

ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبى بقوله :

لا تدهش . . . لقد سرقت اليوم . . . تم ذلك وأنا فى حجرة أبى على مألوف عادتى كل صباح ، أفتح كيس النقود لآخذ منه مصروف يومى المقدر . . . فما إن تثاءب الكيس بين يدى ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف فى أذنى هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بى أن يكون منى لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور . . .

تهيبت بادئ الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت وطأتها علىّ ، وألفيت يدى تنجذب إلى النقود تختطف قطعة فضية رفيعة القدر . . . وهاجمنى فى ذلك الحين صوت أبى : ماذا الذى أبطأ بك . . . ؟ أضللت مخبأ النقود ؟ . . . الكيس أمامك بجوار المرآة ... فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود فى جيبى ، ورددت الكيس مكانه ، وانصرفت عن الحجرة فى تلصص ومحاذرة ، أستجدى طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبى عن الكلام ، يجفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم جمجم :

أسارق أنا . . . ؟ !

وكست الكآبة وجهه ، ، وخنقه النشيج .

ومال عليه الحدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتئس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبى فى صوت خافض :

ما بالى لا أتصدق بمصروف يومى ؟ لقد أثمت فيما فعلت . لن ينال الجنة سالب أثيم . . .

لم يمهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشئوم عليهما الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبى حصة الحساب ، وهو فى قلقه ، يعانى حساب الضمير ، فما أتقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب فى تفكير محتدم ، يستشعر الضيق ، وكأنه يسير فى طريق افترشته الأشواك ، تدمى قدميه .

وما لفظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ فى الشارع العريض ، جماعات فى ضجيج ودوى . وتحلق نفر منهم حول عربة لبائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها وينتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب سؤال ، والبائع الهرم مقسم بينهم كالنحلة الدؤوب ، تستجيب للطلبات فى طواعية واستبشار .

وجذب الخدين صديقه يهمس إليه :

علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .

ووقف الصديقان حيال العربة ، تتطاول أنظارهما إلى ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما فى زحمة الرفاق .

لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العربة وما حوت ، بل هو زاخر بأشتات الحوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .

ومن قصاد الشارع كومة بشرية ، هى امرأة ضريرة ، مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كثب من جدار المدرسة تتفيأ ظله ، فى أسمال بالية ، ترتل آى الذكر الحكيم ، فى صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت رأسها ، متمايلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاولت به طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينيها المطموستين ، سهاماً نفاذة ، تتصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتيها طفلان فى مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة فى الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جور أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبى صنف جديد من الحلوى مثل له يتلألأ فى لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما فى جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزقة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان»؟

فوقف الصبى بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، وابث فى موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبى نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، فى خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الخدين من ذكرياته التى تتراءى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهّاج .